

المودة

حسن فتح الباب

لم نفرق
لكننا حين التقينا في المساء
تأثرت قلوبنا على الطريق
تطايرت مع الرياح
ولم تفيض عينان بالبكاء
حزناً على فراقها المرير
وسلوة من الجراح
لما هوت ضلوعنا ممزقة
واصاعدت أنفاسنا مختنقة
كانت ترانيم المساء تحتضن
هناك عند قبونا العتيق
بين الصخور والشموع والعرق
وغربة البحارة الصغار
تذوب في مناهة النغم
صبحاتهم صحابة قصر
تُشبع الأحران والندم
من قبل أن تحين رحلة العدم
كانت مجامر الرماد تشتعل
وتمسنا تغيب
تغيب فجأة على الجبل
قبل الشروق

كانت بروجنا المشيِّده
يدركها الموتُ الرهيبُ كلُّ حين
وانفضَّ سامرُ الصَّحَابِ ساعة السَّحر
واساقط الشجر
كانت تهاوِمْ الرِّيحُ تُسكتُ الأبن
وتوقظُ الشَّجون
وابتلعت أقدامنا الظلال
بين الدَّروبِ الحاليات
لم تَلَفَّتْ خَلْفَنَا
إلى وميض الذكريات
يرِفُّ من موانئ الشَّمال
على رواسينا الشَّداد
لم نَسْرَقْ أَسْمَاعَنَا
إلى حفيف الأغنيات
ينساب من يادر الحصاد
ومن مروج البرتقال
والشَّمْسُ في غلائل الضحى
تعانق الأطفال
لم تَنَهَكَ جِياهُنَا
سنايكُ الجِياذِ ، والجِياهِ
تعيثُ في ليلِ الفُرى
بين عويل الأمهات
ولم يكن وداع
لأننا عدنا بلا تذكُّر
إلا بقايا من دموع
تَحجَّرت على الجفون

وسخريات مجلس السمر
تحت الدخان والسعال والقمر
من الدمي الجوفاء والإله
كانت أمانينا المضيئة الحرار
مخضوبة الجناح بالجرار
مصلوبة على الجدار
بلا أغار حولها ولا زهور
كانت ضلوعنا خواء
تناثرت قلوبنا على الطريق
تطيرت مع الرياح

يا إخوتي هل تذكرون
مرّ الريح من هنا هذا الصباح
وقبل الصبيان والبنات
وحين راح يقرى الرجال آية السلام
لم يلتقهم على الطريق
كانوا هناك في مشارف التلال
مشردين يبحثون عن قلوبهم
على ذوايب الشجر
على منابع المياه
على غمام القمر
ويلغظون بالصباح هائمين :
يا أيها القضاء
ردّ القلوب للحيارى والعناء
فإتنا بشر
لسنا دمي جوفاء يا إله

وَجَاءَتْ هَبَّتْ أَعاصيرُ الشَّمَالِ
عَلَى رَواسِينَا الشَّدَادِ
عَلَى يَادِرِ الحِصَادِ
عَلَى مَرُوجِ البَرْتَقَالِ
تَطَارِدُ الرَّجَالِ فِي مَشَارِفِ التَّلَالِ
بَيْنَ عَوِيلِ الأَمَهَاتِ
وَمَصْرَعِ الصَّبِيَانِ وَالبِنَاتِ
مَنْ يَوْمَهَا يَا إِخْوَتِي
رُدَّتْ قُلُوبُ الشَّارِدِينَ
عَادُوا إِلَى لَيْلِ القُرَى
يَطَارِدُونَ عُصْبَةَ الذَّنَابِ
وَفِي النِّهَارِ يُسْقِطُونَ عَادَى الجِرَادِ
حَتَّى ضَحَايَاهُمْ عَلَى التَّلَالِ
عَادَتْ قُلُوبُهُمْ تَسِيرِ
دَمَاؤُهَا مَشَاعِلُ الطَّرِيقِ
رَايَاتُنَا نَبَاهُهَا المُخَضَّبَةَ
وَأَغْنِيَاتُهَا بَشِيرِ
وَنَيْضَتْ دَمُوعُهَا النِّسَاءِ
وَعَادَرَتْ مَهودَهَا الأَطْفَالِ
وَالأَرْضُ حَنَّتْ لِلنَّهَارِ
لِلشَّمْسِ ، لِلطَّيُورِ ، لِلعَبِيرِ
وَحِينَ آبٍ مِنْ غِيَابِهِ الرِّيعِ
وَقَبْلَ العَسْفَارِ
كَانَتْ مَوَائِنَا عَلَى الأفُقِ
تُضَى بِالنَّذْكَارِ
وَالسَّنْدَبَادِ يَنْشُرُ الشَّرَاعِ
فِي لُجَّةِ البَحَارِ

وشمسنا تعود
كانت أبادينا تحطم الجدار
وترفع السدود في منابع المياه
والأرض تحي من جديد
كانت نسائم الصباح والأصيل
ترطب الجباه بالقبيل
وموكب العشاق يملا العيون
بالحب ، بالحنين ، بالأمل
على ضفاف النيل
كانت ترانيم القلوب في الشروق
تبث شوق العائدين
للأرض ، للأحلام ، للبنين
وتفتح الطريق للربيع
بين أغاني الأمهات
وضمة العذراء للوليد
ورقصة النجوم في المياه
على قدوم الراحلين
كانت ترانيم المساء في القرى
على يبادر الحصاد
على مروج البرتقال
وضجة المدائن المضيفة الفساح
على موانئ الشمال
على السدود المشرعات في الجنوب
تبث شوق العائدين
وتقرى الرجال آية السلام

من فتح الباب